أمجد ناصر: أواجه الديكتاتورية بجماليات الشعر

حوار: أحمد عبد اللطيف

يعتبر أمجد ناصر (الاردن 1955- لندن) أحد أبرز الشعراء العرب الأحياء، وأكثرهم تجديدًا في الشعر العربي منذ الثلث الأخير في القرن الماضي إلى الآن، كما يعتبر أحد رواد الحداثة الشعرية وخاصة في قصيدة النثر. يمكن أن نقول إنه أحد أهم الشعراء الذي خلفوا أسماء مثل محمود درويش وأدونيس ومحمد الماغوط وصلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب وأمل دنقل، ومن انتقلوا بالشعرية العربية من أرض لأرض جديدة، في فضاء أكثر رحابة ربما بدونه كان يمكن أن نتحدث عن أزمة كبرى في القصيدة العربية. جيليًا، ينتمي ناصر إلى السبعينيات، وهو جيل يجب أن نفكر في السياق السوسيوثقافي والسياسي الذي ولد فيه. هنا نشير إلى جيل تكوّن على هامش هزيمة 67، وهي الهزيمة الكبرى التي تحطمت على صخرتها مفاهيم القومية العربية وكشفت عوارًا في مواجهة الحاضر، دون الحديث عن المستقبل. الهزيمة جاءت بعد أقل من عقدين من إعلان دولة إسرائيل (عام 48) وما تبع ذلك من عمليات منظمة لتهجير الفلسطينيين، وهي عمليات اشتدت حدتها عقب "النكسة". لن يعتبر نصر 73 واسترداد سيناء نصرًا حقيقيًا، إذ انتهى باسترداد الأرض المصرية فحسب، وأعقبها اتفاقية السلام التي اكتفى الرئيس المصري أنور السادات فيها بالتفاوض حول "السلام" فيما يخص مصر وحدها، دون التفاوض على الأرض الفلسطينية. هذا الاضطراب السياسي، هذه الهزيمة، هذا النصر المنقوص، وما صاحبه من توترات اجتماعية وإعادة تعريف مفاهيم سياسية وجغرافية، ترك أثره على الجيل السبعيني العربي، لكنه ترك آثارًا أكبر على شعراء بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين والأردن). من هنا يمكن ملاحظة اختلاف شعرية أمجد ناصر، وانشغالها بأسئلة مفرخة من الثقافة العربية نفسها، انشغالات ابنة الصحراء وتسعى لتقديم تصور لها، وعنها. لن يختفي في شعرية ناصر سؤال الهوية والتاريخ، وستكون أعماله جدارية كبيرة تضم أسئلة الثقافة العربية، قديمًا وحديثًا، عبر صورة شعرية خاصة جدًا، يعلوها صوته الشعري المنفرد، الصحراوي في خيالاته ومجازاته، وعبر تجاوز حاد للماضي الشعري العربي. على أن الملفت أن شعرية ناصر، المنتصرة للفن والجمال أولًا، لم تقع في فخ التصوير السياسي ولا رفع لافتة إيديولوجية، رغم أنه كان من المناضلين في كل ما يخص القضية الفلسطينية وانضم للعمل الفدائي الفلسطيني منذ سنوات شبابه الأولى.

ومنذ ديوانه الأول "مديح لمقهى آخر" (1979) اعتبره النقاد شاعرًا واعدًا، ثم جاء ديوانه الثاني "منذ جلعاد" (1981) والثالث "رعاة العزلة" (1986) ليؤكدا أنه شاعر فريد الصوت، اختار لنفسه طريقًا وعرًا يخصه وحده، وهو الطريق الذي أسس لقصيدة نثر عربية قال عنها الناقد صبحي حديدي:"تمكن من استضافة موضوعات بدا أنها غير ممكنة في هذه القصيدة". ثم توالت دواوين ناصر حتى وصل لـ"مرتقى الانفاس" الذي ترجم حديثًا للإسبانية تحت عنوان "توديع غرناطة"، حيث تناول بشكل ملحمي مأساة ابي عبد الله الصغير.

وبالإضافة للشعر، فأمجد ناصر روائي وناثر عظيم، صدر له ثلاث روايات وكان من أوائل من التفتوا لأدب الرحلات في النثر العربي الحديث، كما انه صحفي مخضرم، اسهم في تأسيس جريدة القدس العربي وكان مدير تحريرها، كما أسس موقع "ضفة ثالثة" الثقافي الذي يعتبر أهم موقع ثقافي عربي الآن.

علاقة ناصر بالتراث الإسباني تبدو واضحة ليس فقط في ديوانه "تودبع غرناطة" بل ايضًا في "هنا الوردة"، حيث يتناص مع رواية دون كيخوتيه الشهيرة ليتناول جزءًا هامًا في التاريخ العربي.

هنا حوار معه عن مشروعه الأدبي.

- يبدو الشعر العربي في حالة من الاستنفار والنهوض والتجديد، رغم ما يعانيه من قلة المقروئية بحسب تعبير الناشرين، كيف ترى حركة الشعر وترصدها في الربع قرن الأخير، خاصة أنك كنت من المساهمين في تطويره؟

- لطالما سمعت شكاوى، وأسئلة، عن "ضعف مقروئية" الشعر العربي الحديث. نحن نتحدث هناعن قراءة، أي عن شعر مكتوب، وليس عن أشكال تلق أخرى، فكيف لمادة مكتوبة أن تكون مقروءة في مجتمعات يعاني معظمها من نسبة أمية عالية. لنأخذ مصر، مثلا، وهي رائدة التحديث الثقافي والمجتمعي العربي. إنها تعاني، كما نعرف، من نسبة أمية قد تتجاوز نصف عدد السكان البالغ تقريبا مئة مليون نسمة، وتنسحب هذه الأمية القرائية، بنسب متفاوتة، على بلدان عربية مركزية أخرى. لكن الشعر العربي ليس كله مكتوبا. هناك مستويات عدة من الشعرية بعضها نخبوي وبعضها شعبي، والأصل في الشعر الشعبي أنه شفاهي وليس مكتوبا وقد يكون غير منسوب لشاعر بعينه. فهو والحال جزء من التراث الشعبي والوجدان الجمعي الذي لدينا منه الكثير، لكن النسج على المنوال "الشعبي" أو "التراثي" ليس تراثاً ولا هو استمرار للطبيعة الشبعية لهذا القول الشعري، فهذا يدخل في باب التقليد والاستنساخ/ إن لم يكن الانمساخ. الشكوى من "ضعف مقروئية" الشعر العربي الحديث لا تعكس ما هو عليه هذا الشعر من واقع فني وتعبيري. هذا موضوع آخر سوسيوثقافي لا علاقة له بما تعرفه القصيدة العربية من تجريب وجماليات وتفكير في الذات والعالم. هذان مستويان مختلفان وقد لا يلتقيان عند نقطة واحدة. المقروئية، بمعنى سعة الانتشار، عمل تتظافر فيه عناصر "تنموية" عديدة، أما القراءة فتعني العلاقة "الندية"، أو العارفة، مع النص. الأولى تستلزم مستوى اجتماعياً واقتصادياً تنتفي فيه المعوقات التي تحول دون انتشار القراءة (بصرف النظر عن مضمونها)، مثل الأمية، فيما تستلزم الثانية مستوى معرفيا وثقافيا يطال كل بنى المجتمع.

- في ديوانك مرتقى الأنفاس (توديع غرناطة) تستحضر أحد أبرز مشاهد التاريخ العربي المشترك مع إسبانيا: سقوط غرناطة، وأحد أشهر ملوك التاريخ العربي: أبو عبد الله الصغير، وتتبنى وجهة نظر مختلفة عما رسمها له التاريخ. بعض المؤرخين يرى أن هذا السقوط ليس هامًا في ذاته بل في نتائجه، إذ ترتب عليه انهيار عربي استمر إلى اللحظة الآنية. كيف ترى هذه اللحظة وهل تتفق مع هذه المقولة أم لا؟ وكيف يمكن أن تقول نثريًا رؤيتك لأبو عبد الله الصغير؟

- يمكن للمؤرخ والباحث أن يستنتجا دروساً من هذه التجربة الحضارية الفذة شبيهة، أو بعيدة، عما قلت. لكن استنتاجات الشاعر مختلفة تماما. لأن الشاعر مهما اقترب من التاريخ يظل يصدر من موقعه الشعري الذي قد يوظف شذرات، مقاطع من التاريخ، غير أنها تظل صادرة من مزيج معقد من المعرفي والوجداني، اللغوية والصور. مقاربتي كانت من هذا القبيل بالضبط. فما أثارني في تلك التجربة، انطلاقا من زيارات لي الى غرناطة، تحديداً، هي المصائر التي آلت إليها هذه التجربة، فإن كانت حلماً انسانيا، أن تتعايش أفكار، أعراق، أديان، ووجوه في مكان واحد وتحت هواء واحد، فيبدو أن ذلك حدث في غرناطة. ولا بد أن الواقع العربي، بل حتى العالمي، حيث الحروب والتمزق والكراهية، وفرض أفكار وسياسات لا تسمح بالتنوع، قد اسهم في تكوين هذه المقاربة الشعرية. فضلا عن انني لست من الجيل الذي ولد في حضن الحنين الى الأندلس. بل ولدت في فترة حركات التحرر العربية والعالمية الساعية للتخلص من الاستعمار وتقرير المصير.. وهذا يعني ان قضايانا المباشرة (فلسطين مثلا) قد فرضت نفسها على وجدان وتصورات جيلي. لذلك الاندلس ليست عندي اكثر لحلم العيش المشترك بين أناس من هويات ثقافية وعرقية مختلفة والتي اصبحت مستحيلة اليوم بعدما رأينا كيف يعامل اللاجئون الذين يفرون من الحروب والمجاعات في امكنة عديدة من العالم. لم يعد ممكنا اليوم تأسيس مجتمعات على أساس التعدد البشري. ربما كانت أميركا اخر هذه المجتمعات لكن ذلك تم على حساب شعوب آخرى، التي أبيدت تقريبا في حمى البحث عن مناطق نفوذ اقتصادية وسياسية. ولا تزال هذه التوترات واضحة حتى اليوم في اميركا وتاريخها القائم على الدم والاقصاء. لكن مع ذلك كان بالامكان تأسيس مجتمع مهاجرين وكانت هناك فرصة لبناء حلم انساني جديد اهدرت.

- التواصل مع العالم الإسباني يبدو واضحًا في هذا الديوان، كما في رواية "هنا الوردة" وكتابك في ادب الرحلات "في بلاد ماركيز". هل يمكن أن تحكي لنا قليلًا عن هذا التواصل وما يجذبك في هذه الثقافة؟

- هذه واحدة من أقرب الثقافات الينا. سواء في ماضيها المتداخل مع ماضينا أم حتى في حداثتها التي كانت رافدا من روافد الحداثة الأدبية العربية عبر ترجمات لشعراء كبار إسبانيين او من اميركا اللاتينية، وخصوصا الأخيرة التي جاء وقت كانت فيه نموذجا يمكن أن يحتذى لبلدان تناضل ضد الاستعمار، وتتوافر على خصائص محلية مثل ما كان لدينا: العسكر، الامبريالية، الفساد، النضال من أجل عالم افضل. كل هذا يغري في الثقافة المكتوبة بالاسبانية للاهتمام بها، والتفاعل معها. في الديوان عالم حلمي أندلسي، ليس تاريخيا كما قلت، ولا علاقة له بالاحداث مباشرة إلا من زاوية جانبية كما علق على ذلك الكاتب الصديق الراحل خوان غويتيسولو الذي كتب كلمة قصيرة ومعبرة عن الديوان عندما قرأه قبل نشره بسنين، ولا اعرف لماذا لم تنشر دار النشر تلك الكلمة التي افتخر بها. يبدو انهم ظنوا اني ابعث اليهم توصية من خوان، أو مجرد رأي له في الديوان. لاحظت ربما أن هناك حضورا خفيا لسيرفانتيس في روايتي الجديدة "هنا الورة". وهناك اكثر من ناقد عربي لاحظ أن بطل الرواية يونس الخطاط أشبه بدونكيشوت صغير. فارس مثالي في عالم لا فروسية فيه، أو هكذا يبدو لنفسه في المرآة. هناك رابطة اخرى تربطه بدونكيشوت وهو قراءة كتب المغامرات التي يلعب فيها الابطال المثاليون أدواراً تخليصية

رغم أن بطل الرواية نفسه لا يؤمن بالخلاص الفردي ولا بدور الأفراد، وحدهم، في تغيير التاريخ. بل ثمة خلفية يسارية ماركسية، مثالية أيضا، تجعله أقرب الى دونيكشوت الذي يراه الناس بغير ما يرى نفسه، ففيما يظن انه فارس يراه الناس مهرجا قادما من عالم آخر لا يشبه عالم الفروسية إلا بالهيكل الخارجي المهلهل.

- العديد من النقاد العرب أثنوا عليك قدرتك على الإمساك باليومي وتحويله إلى شعر وأنك رغم تاريخك النضالي لم تقع في فخ كتابة قصيدة كمنشور سياسي. كيف ترى الفواصل بين الشعر والسياسة، خاصة أن العالم العربي متأجج دائمًا بالحروب والانتفاضات والثورات؟

- هذا أمر تعلمته ايضا من شعراء كبار، بعضهم لاتيني او اسباني او يوناني. معظم الشعراء والكتاب الذين قرأناهم من اميركا اللاتينية، خصوصا، كانت لهم انتماءات سياسية يسارية واضحة، وبعضهم انتمى الى قوى مقاتلة ضد الديكتاتوريات المحلية. حتى نيرودا الذي لا يخفى موقفه السياسي اليومي استطاع أن يجنب الكثير من شعره، أو بعضه، بحسب ما قرأنا من ترجمات سواء الى العربية او الانكليزية، من سطوة السياسة والايديولوجيا. لدي مفهوم تبلور مبكرا يرى أن العمل الشعري، والفني عموما، يمكن أن ينحاز الى قيم العدالة والخير والجمال من دون أن يتعكز على شعارت سياسية. كان لدي نموذج ملهم كبير هو يانيس ريتسوس. هذا شاعر اثر على بداياتي كثيرا لجهة لجم الايديولوجي والسياسي المباشر في النص الشعري. كان ريتسوس، كما تعرف، شيوعيا ومناضلا ضد الديكتاتورية ولكنه تمسَّك بالقيم الجمالية الشعرية وجعلها هي التي تتحدث وتواجه. هذه اكبر مواجهة ضد الظلام سواء كان سياسيا أم دينيا، كما هو عليه عالمنا العربي اليوم الذي تنقض عليه الديكتاتورية العسكرية والنخب العائلية الحاكمة وقوى الإسلام السياسي، التي هي أكبر بدعة في تاريخنا.. وربما من أكبر مصائبنا، لأنها تتحدث الى الأرض بلغة السماء، أو تحديدا اللغة التي تستنبطها هي من النص الديني.

- تتميز قصيدتك بطاقتها اللغوية العالية، طاقة مليئة بالصور وقوة الاستحضار ومحمّلة بموروث ثقافي، لكنها فوق ذلك قوية ومنتقاة. كيف تفكر في حالة قصيدتك بعد أن تروح للغة أجنبية، كالإسبانية مثلًا؟ هل تفكر في أنها ستفقد جزءًا من بريقها، أم أن القصيدة في معناها؟ أم كيف ترى المسألة.

- لا أعرف كيف تصبح في الاسبانية أو الفرنسية اللتين لا أعرفهما ولكني اعرف كيف تصبح في الانكليزية. إنها شيء آخر تماما. اللغة ليست مفردات تنقل من العربية الى الانكليزية او الاسبانية، إنها حمالة سياقات ودلالات تكاد لا تنفد خصوصا مع لغة كالعربية التي تتميز من دون سائر اللغات الأخرى بأنها لغة كتاب المسلمين الأصلية: القرآن، أي لغة "الله"، لأنه بحسب الفهم الديني أمليت آيات القرآن على محمد عبر وسيط. هذا يجعل مشكلتنا مع اللغة العربية، نحن الذين نريد أن نحدث ونطور ونعيش أزمتنتنا، مشكلة دينية! وهذا لم تواجهه، حسب علمي، لغة اخرى. مع ذلك نكتب ونختلف ونجعل لأنفسنا لغة تشبه زماننا ومشاكله. العربية لغة كل مفردة فيها تعاقب عليها آلاف الشعراء والكتاب والفقهاء والمفسرون وتراكمت طبقات فوق بعض وعليك كشاعر حديث أن تجد لك موطىء قدم في هذا الأرشيف الهائل. على كل حال، هذا يعني أن مهمة المترجم صعبة لأن عليه أن يعرف هذه الخصيصة وأن يفهم الظلال الطويلة للمفردات. ويبدو أن الاسبانية أقرب اللغات

الاوروبية الينا ليس لأن هناك تاريخا حضاريا بيننا وبين الاسبان ولكن لأنها، كما فهمت، تتيح مجالا للعاطفة والمشاعر القوية، وهذا الأمر يبدو نافرا، مثلا، في الانكليزية التي هي لغة أكثر تقشفا، على هذا الصعيد، رغم ضخامة معجمها.

- أنت أردني، مع ذلك يظن من لا يعرف هذه المعلومة أنك فلسطيني لانشغالك بالقضية الفلسطينية ونضالك من أجلها، ثم أنك هاجرت إلى لندن ولازلت تكتب بالعربية وعن العالم العربي، بل عن عالمك أنت نفسك في الأرض العربية. هل ترى أن هذا التنوع المكاني قادر على إثراء تجربتك الشعرية والأدبية بشكل عام؟ هذا التمزق والاغتراب كان سببًا في خلق سؤال الهوية في تجربتك؟

- أظن ذلك. هذه التجربة الطويلة مع أمكنة وثقافات ومشاهد مختلفة تماما عن المكان الأول تتخلل الكتابة حتى من دون أن نشعر. مؤكد أن كثيرا من اعمالي ما كان ممكنا كتابتها لو كنت لا ازال في بلدي الأردن الذي غادرته قبل اربعين عاما. بل ما كان ممكنا أن اجري مراجعات وتأملات في الثقافة العربية لو اني ظللت أدور بين أربعة جدان تسمى الوطن. اظن ان هذا حصل في ثقافات عديدة منها الاسبانية التي عرفت هجرة ونفيا طويلا لكتاب وشعراء ورسامين الى بلدان اوروبية عديدة. رغم سوء المنفى الا ان هناك فوائد فيه منها القدرة على تأمل الذات والآخر بطريقة مباشرة.

- الثورات العربية في تونس ومصر وسوريا واليمن وليبيا، رغم سمو أهدافها والضرورة لها، خلّفت وراءها خرابًا وطفوًا للجماعات المتطرفة وانقسامات كبيرة داخل كل دولة. بصفتك مثقف ومحلل سياسي في أعمدتك الصحفية، ومناضل قديم ضد الديكتاتوريات العسكرية، كيف تتوقع مآل كل ما يحدث الآن؟ وكيف تفسّر نجاح الثورات المضادة للسيطرة على الانتفاضات الشعبية؟

- لقد تم تدمير هذه الثورات من بداياتها عندما قفز عليها الاسلام السياسي الذي كان الاكثر تنظيما وقدرة على التعبئة من قوى شبابية لم تملك تنظيما ولا برنامجا سوى التخلص من الطغيان والحلم بالعدالة الاجتماعية. هناك دول خليجية رجعية مكنت الطغيان العسكري من ان يسترد انفاسه (مصر مثلا) وأن تحول الثورات الى تصفية حسابات كما حصل في سورية وليبيا واليمن. لم تعد هناك ثورات اليوم، بل حروب أهلية وصراع دموي بين الديكتاتوريات المحلية التي جعلت الجيوش والقوى الامنية الرسمية مجرد مليشيات تتصارع مع مليشيات أخرى، سورية مثلا. لا يبدو اليوم أن هناك أفقا لعودة هذه الثورات كما عرفناها في الربيع العربي في أيامه الأولى. ليست عندي وصفة جاهزة لكيف يمكن استرداد الحلم سوى الحلم ذاته.. لم افقد ايماني تماما بأن هناك شيئا سينبثق من رحم هذا الخراب والتدمير الشاملين للبني التحتية والتهجير غير المسبوق للبشر بالملايين، فقد افلست كل هذه القوى المتصارعة ولم يعد لديها حتى القدرة على مواصلة القتال. لقد اصبح هذا القتال عقيما ومكلفا للقوى الرجعية العربية الخليجية التي تغذيه بالمال، فهذه تعيش مصاعب اقتصادية واجتماعية جمة وتحديات للبقاء ربما يجعلها تنكفىء على ذاتها.

مقدمة توديع غرناطة

سقوط غرناطة في أيدي الملوك الكاثوليك في يناير 1492 من الموضوعات المبتذلة في الشعر العربي الحديث. وأغلب الكتاب الذين يتطرقون إليه يرون فيه رمزا لتصدع قوة ما فتئت تتناقص وتضعف إلى أن سقطت الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى (وليس هناك أي علامة انتعاش رغم تحرر البلدان العربية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية). لكن هناك آخرون، وهم قلة، يحتفظون لأنفسهم بمسافة من الحياد ويجعلون من الموضوع مطية للإبداع في اللغة والتي تصبح البطل الحقيقي في القصيدة. ومرتقى الأنفاس لأمجد ناصر يتبنى هذه الرؤية ويطعمها بحميمية إبداعية متميزة.

لقد دافع هذا الشاعر الأردني، المغترب اليوم في لندن، دائما وبثبات عن القضية الفلسطينية وعن الديمقراطية في العالم العربي. بيد أنه لم يسخر قلمه كشاعر لخدمة مثل هذه القضايا رغم عدالتها ونبلها. فأمجد ناصر يعلم حق العلم أنه لا ينبغي الخلط بين الغنائية وبين النضال الوطني والإيديولوجي. تلك مهمة يتكفل بها الشاعر الملحمي، أو ما يعرف اليوم بالشاعر الدعائي. وأمجد ناصر ليس هذا ولا ذاك، فهو قد بحث دائما وما زال عن التعبير بصوت متميز عبر الكلمات الدقيقة والجميلة. إنه ليس من أولئك المقلدين لنيرودا أو إلوار أو أراغون. فشعره ينحدر مباشرة من الغنائية العربية الأصيلة ويجددها ويبعث فيها نضارة وحيوية.

تسلسل أطوار الموضوع في هذا ا الكتاب والذي أجاد أحمد العبدلاوي وماريا أنطونيا ريكاس في ترجمته، يكشف لنا عن جوهره الأصيل: النظرة الجانبية لحبكة الأحداث عبر التفاصيل المعبرة، دون الوقوع أبدا في تلك النبرة الرثائية للفردوس المفقود. أبو عبد الله الصغير، الملك الناصري الأخير، ليس هنا تلك الشخصية المأساوية، بل إنه يسري فيه بطريقة جانبية والكلمات الشعرية تلامسه بوداعة بأجنحتها

"آه لخفتي،

لقد وصل الغريب

بلا أمس ولا غد

وصل الغريب

مع

النفس

الأخير"*

مجمل القول: إننا أمام مثال رائع عن الشعر العربي المعاصر لمن له تعلق به.

خوان غويتيسولو